الصحراء الشرقية الجزائرية واهميتها الاستراتيجية خلال المقاومة الشعبية 1837-1883

Le Sahara oriental algérien et son importance stratégique Pendant la résistance populaire 1837-1883

عبد القادر كركار- جامعة الوادي (الجزائر)
kerkar-abdelkader@univ-eloued.dz

تاريخ الاستلام : 2019/10/12 ؛ تاريخ القبول : 2020/01/10 ؛ تاريخ النشر : 2020/01/30

ملخص :
تتناول الدراسة موضوع المقاومة الشعبية في الصحراء الشرقية الجزائرية وكيف مثلت عمق استراتيجي وقواعد خلفية للمقاومين جعلت فرنسا لا تهنأ باحتلال المناطق التلية، فبدأت الدراسة بالتحديد الجغرافي والقانوني لمناطق الجنوب الجزائري خلال فترة الاحتلال الفرنسي، عندما شرعت فرنسا بالتوسع جنوبا وظهرت الحاجة إلى تحديد الحدود، حيث كان يبدو الامر كنوع من الفضول والرغبة في الاستكشاف لما وراء الافق غير أن الامر ظهرت فيه جوانب أخرى فاصبح الاستكشاف سبر لأغوار ومجاهل الصحراء التي كانت ملاذ المقاومين حين تضيق عليهم الامور في التل، واصبح من الضروري تتبع قواعدهم الخلفية في الجنوب وقد بدأت الدراسة بلمحة موجزة عن كيفية التوسع الفرنسي في الجنوب وسياسة فرنسا في ذلك من خلال انتهاج أساليب متنوعة وما أقامته من أنظمة تخضع لخصوصية المنطقة ، حيث انه بداية الأمر كانت أمور الإدارة تسند إلى حكام محليين نظرا لجهل الضباط الفرنسين لطبيعة البلاد وسكانها، ثم ظهرت الحاجة إلى وضع نظام حكم ثابت فرسمت الإدارة الفرنسية في الصحراء الجزائرية خصوصا الحكم العسكري في مناطق الجنوب، وترتكز عناصره على حفظ الأمن في كامل الإقليم، والتحكم فيه بشتى الطرق وتطرقت الى أبرز المقاومات الشعبية التي واجهت التوسع الفرنسي في الجنوب عموما والصحراء الشرقية على الخصوص حيث لم تنطفئ جذوة المقاومة الشعبية بمختلف الوسائل والاساليب، وكيف واجه السكان السياسة الاستعمارية
الكلمات المفتاحية: صحراء؛ توسع؛ مقاومة شعبية؛ حكم عسكري؛ بن ناصر.

Résumé
L'étude traite du thème de la résistance populaire dans le Sahara algérien. Et comment les bases arrière de la résistance et la profondeur stratégique n'ont pas rendu les choses faciles pour Lorsque la France a commencé la conquête .Cela semblait être une sorte de curiosité et un désir d'explorer au-delà de l'horizon, mais il y avait d'autres aspects. Le Sahara était le refuge de la résistance quand les choses se rétrécissaient au tell, Il est donc devenu nécessaire de détruire les bases arrière dans le sud.
L'étude donne un bref aperçu de la politique Français par l'introduction de diverses méthodes et des systèmes qu'ils ont mis en place qui sont soumis à la spécificité de la région Dans un premier temps, l'administration a été affectée aux Qayeds locaux. Ensuite, il y a eu la nécessité d'établir un système de gouvernement stable dans le sud, dont les éléments étaient fondés sur le maintien de la sécurité sur l'ensemble du territoire et le contrôle de diverses façons Mais malgré cela , La résistance populaire n'a pas été éteinte par divers moyens et méthodes, et comment la population a fait face à la politique coloniale.
Keywords: Sahara; résistance; bouchoucha; ben chouhra; tougourt.

I- تمهيد:

منذ أن وطئت أقدام المحتل الفرنسي للأرض الجزائرية اندلعت مقاومة عنيفة عبرت عن طبيعة فئات الشعب الجزائري المتشبثة بالأرض والمتشبعة بالمبادئ الروحية، وهو الامر الذي لم تتحسب له فرنسا حساب فوجدت نفسها

متورطة في حرب ضروس، خاصة بعد أن قررت مواصلة المغامرة بخيار الاحتلال المباشر بعد تقارير اللجنة الافريقية التي أرسلتها لدراسة خيارات الاحتلال.

1 الاستكشاف والتوسع الفرنسي في الصحراء ودوافعه

لم يكن التوسع الفرنسي في داخل البلاد اختيار بقدر ما كان اضطرار بعد أن قررت فرنسا البقاء في الجزائر، لأن السلطات الفرنسية أدركت أنها لن تهنأ باحتلال الساحل ما لم تتوسع افي الاحتلال إلى الداخل حيث قواعد المقاومة الخلفية، وهذا الامر حتم عليها في أول الامر: سبر أغوار هذا المجهول الذي وجدت نفسها في مواجهته، هذه الصحراء الشاسعة القاسية المترامية الاطراف جنوبا والتي تغطي معظم أراضيه بكل مظاهرها من عرق، رق و وكتل جبلية وحمادات، ما يجعلها متحف طبيعي مفتوح وأرض بكر مجهولة مفتوحة الأفاق، فهي الخلاء والبيداء والفيافي وغيرها من الأسماء، وإن كان اسم الصحراء حسب بعض الاجتهادات مشتق من السحر أي الوقت الذي يسبق الفجر حيث يمكن تميز الخيط الأبيض من الأسود، وهو ما يتم بوضوح في الخلاء حيث لا حواجز طبيعية في الأفق مع صفاء السماء. (Dumas.1845,1).

فالصحراء من أهم مناطق البلاد بمظاهر السطح المتنوعة، بداية بسلسلة جبال الأطلس الصحراوي التي هي فاصل طبيعي بين مناطق التل المحاذية للصحراء كالهضاب العليا وشط الحضنة، حيث تبدأ أولى مظاهر الصحراء وأولى واحاتها بوسعادة والجنوب الكبير حيث نجد كبرى التجمعات السكنية في عدد من الوديان كوادي ميزاب بمدنه غرداية، بني يزقن، بريان، بونورة، العطف، مليكة، وإلى الشمال القرارة.

والى الشرق نجد وادي ريغ بمدنه وقراه كالمغير، تندلة، في الشمال وجامعة، مازر، تقديدين، سيدي يحيى، سيدي عمران، تمرنة، في الوسط والمقارين، تبسبست، الزاوية العابدية، تماسين، النزلة، غمرة، بلدة عمر، القوق، لقصور تقرت، في الجنوب والتي يصفها الفرنسيون أنها محط تجار تونس الذين يصلون إليها فهي المركز العام لسكان المدن والقرى المجاورة وليس نقطة القوافل الكبرى كما هو شائع (Dumas.1845,137) علاوة على أنها عاصمة سلطنة بني جلاب، والي كانت تتبعها منطقة وادي سوف بمدنها الوادي، قمار، كوينين، الرقيبة، تاغزوت، الدبيلة، الزقم، والرباح.

أما في الغرب فوادي الساورة وما يضم من مدن وقرى إلى جانب المنخفضات التي تضم واحات عديدة كمنطقة الزيبان حيث واحات الزعاطشة، طولقة، ليشانة، ليوة وما جاورها، ومنطقة ورقلة بواحاتها العديدة، كالحجيرة والرويسات وفي وسط الصحراء منطقة القورارة أو تيقورارين بعاصمتها تيميمون وإلى الجنوب توات الوسطى حيث مدن أدرار، تامنطيط، زاوية كونته، تامست، فنوغيل، وإلى الجنوب منها تيدكلت بعاصمتها عين صالح وبالتعمق جنوبا كتلة جبال الاهقار حيث تعتبر تامنغست عاصمتها وجبال التاسيلي بعاصمتها جانت.

وإن كانت هذه أهم مناطق تجمعات السكان في الصحراء إلا أنها لا تخلو من مدن وبلدات على أهم محاور الطرق الكبرى الرابطة بين هذه المراكز، كالمنيعة أو القليعة حسب التسمية الفرنسية واتي كان الماء الموجود فيها ذا نوعية جيدة وهي مركز سكاني هام (soleillet,1877,233)، ما جعلها مطمع للفرنسيين ومحطة لمواصلة مغامرتهم التوسعية حيث ان وفرة الماء كان يحفز الفرنسيين على التقدم جنوبا.

وللفصل في نظام الحكم بين التل والصحراء بعد امتداد الاحتلال الفرنسي كان لابد من وضع حدود ومعالم لتحديد مناطق الجنوب حيث ضمت أقاليم الجنوب إداريا مناطق شمال الأطلس الصحراوي كمشرية والبيض، عين الصفراء، الجلفة، والاغواط في وسط جبال الأطلس.

فمع سقوط مدينة الجزائر، أخذت القوات الفرنسية تزحف على المدن والقرى الجزائرية شرقا وغربا، وبعد احتلالها لقسنطينة وتتبع قوات أحمد باي في الاوراس، بدأت مرحلة استطلاع نظرا للجهل الفرنسي للواقع السياسي والطبيعي للمناطق الصحراوية النائية، والذي دفعهم، إلى إرسال بعثات استطلاعية لاستكشاف خبايا هذه المناطق بما في ذلك، البداية بترجمة الرحلات التي قام بها المسلمون مثل رحلة العياشي، والأغواطي، والدرعي، ونشرت على أوسع نطاق، للاستفادة منها سياسيا وعسكريا منها رحلة الأغواطي من الإنكليزية إلى الفرنسية كما كونت لجنة علمية فرنسية في عام 1839ضمت عددا من العلماء والضباط العسكريين للبحث في مختلف جوانب الحياة بالجزائر، ومنها العلاقات مع إفريقيا، ودراسة الطرق التجارية التي سلكها العرب في الصحراء، وشرعت السلطات الاستعمارية في استغلال تلك المعلومات بعد احتلال بسكرة في مارس1844، ودعمتها ببعثات ذات طابع تجاري في ظاهره، وهدفها الحقيقي هو التعرف على تلك الجهات (غنابزية، 2009/2008 ،16) فكانت أولى البعثات الاستكشافية إلى ورقلة بعثة الرحالة الجنرال دوماس الذي زار المنطقة سنة 1842 حيث حدد موقعها الجغرافي ووصف المدينة والقصبة.

كما استعرض ترومليي من خلال زيارته لورقلة سنة 1853 قصبة ورقلة واصفا نمطها العمراني وأعراشها الثلاثة بني سيسين وبني وقين وبني إبراهيم، وحدد أبواب المدينة وأشار إلى عدد السكان وقام كوسون برحلات في الجنوب الجزائري عام 1859 وقد استطاع أن يستكشف الصحراء الجزائرية من الشرق إلى الغرب وحتى أقصى الحدود الجنوبية وجمع وثائق كبيرة وجدها بالمنطقة، كما درس السطح والمناخ السائد والمياه الجوفية كما حضت ورقلة بزيارة أدريان بربروجر عام 1850 في إطار استكشاف الخط الصحراوي الممتد ما بين الجنوب الغربي وحدود المغرب وكانت انطلاقته من قابس وشملت رحلته واحات وادي سوف ووادي ريغ وورقلة والمنيعة وتوات.

ومع بداية السبعينات من القرن التاسع عشر وصل الرحالة شارل فيرو إلى ورقلة سنة 1871 حيث قام بدراسة طبيعية وأنثروبولوجية وإحصائية لمنطقة ورقلة واستعرض العلاقات الاجتماعية بين مختلف القبائل البدوية ونشاطها الفلاحي وعاداتها وتقاليدها كما تنعرض لأسرة أولاد علاهم سلاطين ورقلة وصراعهم مع أسرة بن بابية شيوخ نقوسة بل وحتى الصراع الداخلي بين أسرة بن بابية (شافو، 2011، 84)

وإذا خصصنا الحديث عن الاحتلال الفرنسي العسكري للجنوب الشرقي الجزائري، فلا شك أن هناك أسباب جعلته يحضا بأولوية الاحتلال قبل التوسع نحو الجنوب الغربي الجزائري واحتلاله، وهي كالآتي:

-انسحاب معظم المقاومين الجزائريين من الشمال باتجاه الجنوب على أمل تجديد المقاومة ضد العدو، و هذا مثلما حدث مع الحاج احمد باي عندما سقطت مدينة قسنطينة فانسحب إلى منطقة الزيبان ثم وادي سوف، وأيضا مثلما حدث مع المقرانيين عندما فشلت مقاومة المقراني والحداد سنة 1871 م، انسحبوا إلى الجنوب الشرقي ثم التجؤا إلى تونس.

-محاولة حصار تونس عسكريا و اقتصاديا من ناحية الجنوب الشرقي الجزائري بحكم المبادلات التجارية والعلاقات الاجتماعية بين منطقتي الجريد التونسي ووادي سوف تمهيدا لفرض الحماية عليها.

-أن منطقة الجنوب الغربي الجزائري كانت محل أطماع المغرب ألأقصى ولذلك أبرمت السلطة الفرنسية معه معاهدة لآلة مغنية في 23 أوت 1845م ، لتخطيط الحدود والتزام الحياد، وكان الهدف الحقيقي من وراء هذه المعاهدة كسب الوقت، و تجنب الصراع الذي اجل إلى 30 مارس 1912 م، وهو تاريخ فرض الحماية الفرنسية على المغرب الأقصى (شافو، 2011-2012، 20).

وقد ساعد الموقع الجغرافي لوادي سوف والامتداد الرملي الشاسع والمناخ القاسي الذي تميزت به على عزل أرضها مؤقتا وصارت الملاذ الأمن الذي يأوي إليه المقاومين بعد انتهاء معاركهم فيستقرون من أجل استرجاع الانفاس وتجديد روح المقاومة والاعداد للمعركة الجديدة

وأخذت المنطقة هذه الصفة منذ القدم وقد أشار إلى ذلك العدواني في تاريخه خلال القرن السابع عشر في قصة العش عندما عزم على الهروب من تونس إلى سوف فقال لأبنائه ((عليكم بسوف فهي أم الهارب)) وقد التجأ إليها في القرن التاسع عشر الحاج أحمد باي قسنطينة خلال شهر ديسمبر 1837 أثناء صراعه مع فرحات بن سعيد، فبعد سقوط قسنطينة فكر أحمد باي في محو هزيمته فجمع رفاقه واقترح عليهم تكوين زمالة من عائلاتهم وأطفالهم وأموالهم وتوجيهها إلى الصحراء لتكون في مأمن من الاخطار (غنابزية، 2014 ،63) أما خليفة الامير عبد القادر محمد الصغير بن عبد الرحمان الذي أبدى مقاومة باسلة في مواجهة الفرنسيين فإنه اضطر للانسحاب نحو سوف، بعد احتلال الفرنسيين لبسكرة 1844 وبعد احتلال الأغواط و ورقلة سنة 1853 التجأ الثائر ابن ناصر بن شهرة إلى الجريد التونسي عبر سوف (غنابزية، 2010 ،154) وهذه الحالة شكلت في أعين الفرنسيين مؤشرا مقلقا على وجود حلفاء أقوياء للمقاومين، لكون الثورات التي كانت تندلع في الشمال كانت تجد في الجنوب والواحات عند فشلها مركزا لتجديد المقاومة، وعلى هذا الأساس كان لابد على الفرنسيين من إخضاع كل المناطق الصحراوية المتبقية(شافو، 2013 ،87) في الجنوب ليستقر لها الامر في الشمال ولو مؤقتا.

2 الاحتلال الفرنسي للجنوب الشرقي

بعد مرحلة الترقب ودراسة الاوضاع لم تنتظر فرنسا طويلا للتوغل جنوبا مدفوعة بضرورة تتبع الثوار المقاومين الذين انسحبوا إلى قواعدهم الخلفية، لكن بإتباع استراتيجية يشوبها الكثير من الحذر في ميدان ليست متعودة عليه وحتى أساليب قتال أرهقت قواتها وحيرت جنرالاتها وقد انتهجت في سبيل ذلك بعض الطرق والاساليب كان من بينها:

أولا أسلوب استغلال التفرقة والخلافات ((**فرق تسد**)) وهي السياسة التي تحسن انتهاجها للتفريق بين السكان بشعار فرق تسد حيث تستغل التنافس بين العائلات الكبرى أو الصفوف، فتقرب إحداها على حساب الاخرى دون أن تقضي نهائيا على نفوذها بل تتركها لوقت الحاجة وتجعلها تهديدا ومنافسا للعائلة المنضوية تحت لوائها حتى تبقى دائما في حاجة إلى دعم السلطة الفرنسية وخاضعة لها، وكانت هذه الحالة في أغلب مناطق البلاد الداخلية كبسكرة أو الاغواط حيث يذكر بول سولي أن : ((الاغواطيون مقسمون مثلما كان الأمر دائما والى ألان إلى قسمين أو صفين متمايزين على رأس احدهم توجد عائلة خليفتنا السابق احمد بن سالم..(soleillet ,12).

زد على ذلك العلاقات المصلحية بين أعداء السلطنة والفرنسيين دفعت بالإدارة الفرنسية إلى تكوين عملاء وموالين لها في المنطقة وذلك لتسهيل عملية الاحتلال العسكري وأهم مظاهر هذا الاستغلال حث بعض القبائل الموالية للفرنسيين على محاصرة القبائل المعادية للتواجد الفرنسي مثلما حدث عام 1847 عندما حثت الشيخ سي حمزة ولد بوبكر قائد أولاد سيدي الشيخ وشجعته على التدخل في شؤون ورقلة واحتلالها 1853 باسم السلطات الفرنسية بعد معركة انتصر فيها على الشريف محمد بن عبد الله في عرق بوسروال جنوب ورقلة (شافو، 83) ومن أجل كسب العائلات والقبائل الجزائرية الكبرى إلى صف السلطة الفرنسية أسندوا إلى بعض أفرادها الوظائف والمناصب والقيادات وأغدقت عليهم المال والجاه(شافو، 2014، 46)

ثانيا استغلال نفوذ شيوخ الطرق الصوفية وذلك لتسهيل مهمة الرحالة الفرنسيين، وتأمين حياتهم، ولاسيما شيخ التجانية محمد العروسي الذي قدم المساعدة لبعثة فور لامي الفرنسية في بلاد التوارق فيما بين 1898 1899 وكان يتلقى من السلطات العليا رسائل الشكر على جهوده في الصحراء، ومثله فعل شيخ القادرية، محمد الهاشمي الشريف، الذي كان نشطا في ربط علاقات مع بلاد السودان وغات، وجند بعض أتباعه لممارسة التجارة في تلك المواقع النائية، ومساعدة .الفرنسيين على تأمين ظروف التنقل في جنوب الصحراء الجزائرية، ببذل جهود كبيرة لإصلاح وتحسين وصيانة نقاط المياه القديمة، وإنجاز آبار جديدة نحو غدامس (غنابزية، 2008-2009 ،122).

ثالثا أسلوب الترغيب والترهيب ويعرف في الادبيات الفرنسية بأسلوب العصا والجزرة ومن الامثلة على نجاح هذا الاسلوب عند القبائل الصحراوية ما جاء في الروايات الشفوية عند أهالي منطقة وادي ريغ ((أن بعض أعيان تقرت والذين هددهم سلمان الجلابي بالقتل ذهبوا إلى بسكرة طالبين من الضباط العسكريين الفرنسيين هناك التدخل لحمايتهم

فقال القائد الفرنسي أريد أمولا مقابل ذلك فقبلوا فكانت مصاريف الحملة الفرنسية ضد وادي ريغ على نفقة هؤلاء الاعيان)) (شافو، 2014، 51)

رابعا أسلوب الاغراء وتوزيع الالقاب ومن أبرز الامثلة نجد حمزة ولد بوبكر الذي عمل على خدمة الفرنسيين أكثر من خدمة أنفسهم، وهذا باعتراف السلطة الاستعمارية ((ربط قضيته بقضيتنا وكان وفيا لنا، كان يرغب في سلطنة ورقلة ليكون بين أيدينا، ويكون الشخص المهم في توسعنا بأقصى الجنوب، كان طموحه حكم الجنوب حتى تمبوكتو أو على الاقل ورقلة حتى توات)) (شافو، 2014، 57)

خامسا استغلال عدم الاستقرار السياسي حيث استغلت السلطة الفرنسية استحكام الصراعات القبلية بين مختلف التشكيلات الاجتماعية لمنطقة ورقلة وضواحيها استغلال هذه الصراعات وتطبيق سياسة التفرقة لأنهم وجدوا في هذه النزاعات خير وسيلة لاحتلال ورقلة وبسط نفوذهم عليها فعلى سبيل المثال فقد تعاقب على سلطنة ورقلة في ظرف إحدى عشر سنة 1840 – 1851 ستة سلاطين وهم مولاي الطيب، مولاي الذهبي، مولاي عبد القادر، ومولاي علي الذي اغتيل بعد سنتين من حكمه ثم حكم مولاي مسعود الذي حكم ثلاثة أيام فقط وكان أخرهم مولاي أحمد الذي حكم لمدة شهرين فقط ناهيك عن مشيخة نقوسة التي تعاقب على حكمها في هذه الفترة شيخين وهما الشيخ الحاج أحمد بن بابية وابنه الشيخ أبو حفص بن بابية(شافو، 2011، 86)

وقد أصبحت لفرنسا قناعة راسخة أن أي مقاومة شعبية تفشل في مناطق الشمال فمناطق الجنوب تتحول إلى معاقل الثوار وملجأ للمقاومين بغية جمع أنصار جدد (شافو، 2011، 87) فجهزت ثلاث فرق عسكرية لإخضاع ورقلة، الاولى قادمة من وهران بقيادة الجنرال يوسف والتي تمركزت بالجلفة، والثانية قادمة من معسكر بقيادة بليسي والتي تمركزت بالبيض، والثالثة قادمة من المدية بقيادة ماكماهون والتي تمركزت بالجنوب القسنطيني وانطلق سي حمزة ولد بوبكر الذي كافأه الفرنسيين على دوره في احتلال الاغواط 1852 وعينوه خليفة على المنطقة الممتدة بين الجلفة والحدود المغربية مدعما بالفرنسيين بقوات قدرها 2000 فارس و200 من المشاة(شافو، 2011، 89) استباحوا المدينة لجنودهم لثلاثة أيام بعد أن توقفت المقاومة، ولمدة ثمانية أيام وهم يقتلون الناس دون رحمة ، ومارس الجنود النهب والسلب، واغتصبوا النساء وارتكبوا مجازر رهيبة وشنيعة في حق الأهالي، حيث وصل عدد القتلى إلى حوالي 2000 قتيل من بينهم بعض الفرنسيين.

وبعد التأكد التام من احتلالها في 22 جويلية 1853 م اصدر راندون الوالي العام بالجزائر قرار ينص على تأسيس دائرة الاغواط بصفة دائمة، وتعين الرائد " دوباري قائداً أعلى لدائرة الاغواط حسب القرار المؤرخ في 27 أكتوبر 1853م(شافو، 2013، 27) وسار نحو نقوسة حيث أخضع في طريقه قصر متليلي ووادي مزاب إلى أن وصل إلى مدينة نقوسة فأخضعها في 5 ديسمبر 1853 رفقة الفرق العسكرية، التي لحقت به وبعد مرابطة دامت نحو اثنان

وخمسون يوما بنقوسة سار سي حمزة نحو ورقلة لاحتلالها ودخل في معارك طاحنة ضد الشريف محمد بن عبد الله خاصة في منطقة الرويسات فانهزم الاخير في 27 جانفي 1854 وتم إخضاع كل قرى ورقلة وانسحب على إثرها نحو تونس لاسترجاع أنفاسه من جديد بعدها دخل الكولونيل ديريو ليعلن باسم فرنسا احتلال ورقلة(شافو، 2011، 87)

ثم غادرت القوات الفرنسية بعد احتلال ورقلة باتجاه منطقتي وادي ريغ ووادي سوف حيث وقعت معركة المقارين الشهيرة حيث ضرب السكان أروع الامثلة في الوطنية والتضامن وقد تمكنت فرنسا من احتلال الواديين تكريسا لاحتلال ورقلة، غير أن الامر لم يستقر فعادت إليها القوات الفرنسية في 1857 لمدة ثلاث سنوات وعينت سي زبير ولد بوبكر يسدي الشيخ خليفة على ورقلة، غير أنها تحررت مرة أخرى سنة 1871 من طرف الشريف بوشوشة ، وعادت القوات الفرنسية من جديد بقيادة دولاكروا وأعاد لاحتلال ورقلة من جديد في 5 يناير 1872 وعلى إثر هذا الاحتلال نصبت السلطة الاستعمارية الملازم بن دريس أغا على ورقلة وتقرت وطلبت منه ملاحقة الشريف بوشوشة وفي 1883 استقرت القوات الفرنسية نهائيا بعدما تم تنصيب أول مركز عسكري فرنسي بمنطقة الرويسات(شافو، 2011، 89) .

ومع هذا التوغل جنوبا ظهرت الحاجة إلى تحديد معالم فاصلة، ففي الغرب كانت معاهدة 18 مارس 1845 قد حددت الحدود من ساحل البحر الى ثنية ساسي -وليس بعد ذلك حسب ما جاء في المعاهدة -فحسب البند الرابع فالصحراء ليست لها حدود لنوضحها بما ان الأرض لا تحرث وهي معبر للعرب من الإمبراطوريتين (Les territoires du sud ,7) حسب تعبير المعاهدة، غير أن التوغل في الجنوب أوجد وضع جديد تم معالجته بالاتفاق مع المملكة الشريفية لتحديد الحدود.

أما الحدود الشرقية مع تونس فقد تم الأمر كذلك بالاتفاق بين المستعمرة والمحمية بعد وقوع الحماية لاحقا وذلك من طرف وزير الشؤون الخارجية الفرنسي بتاريخ 30 أكتوبر 1901(Les territoires du sud ,7) فالحدود شرقا كانت واضحة المعالم على اعتبار أن منطقة الزيبان كانت ضمن أراضي بايلك الشرق ووادي ريغ وسوف ضمن سلطنة بني جلاب والجريد ضمن سلطة بايات تونس.

ولتثبت فرنسا حكمها على كل شبر من الأرض الذي تستولي عليه أقامت أنظمة تخضع لخصوصية المنطقة، ففي بداية الأمر كانت أمور الإدارة تسند إلى حكام محليين في البداية نظرا لجهل الضباط الفرنسين لطبيعة البلاد وسكانها، ثم ظهرت الحاجة إلى وضع نظام حكم ثابت فرسمت الإدارة الفرنسية في الجزائر عموما، وفي الصحراء الجزائرية خصوصا، سياسة قوامها بسط النفوذ السياسي، والسيطرة الشاملة على المجتمع الجزائري، والتحكم فيه بالقبضة الحديدية، التي جعلت رمزها الحكم العسكري في مناطق الجنوب، وترتكز عناصره على حفظ الأمن في كامل الإقليم، والتحكم فيه بشتى الطرق والأساليب، وتوجيه طاقة السكان لخدمة فرنسا، وانتهاج سياسة التسلط والمتابعة، واستعباد الأهالي، وإرهاق كاهلهم بالضرائب التي تساهم في رفاهية المستعمر، وتبني صرح منشآته الاقتصادية .وبادرت تلك السياسة منذ الوهلة

الأولى ببناء المدارس، وفتح أقسامها للصغار، من أجل بناء شخصية جزائرية تمد جسور الطاعة والولاء، وتسالم المستعمرين (غنابزية، 2009/2008، 94)

3 المقاومة الوطنية والالتفاف الشعبي حولها

لم تنطفئ جذوة المقاومة الشعبية رغم ما تعرض له الشعب الجزائري من مختلف وسائل البطش والارهاب الجماعي، فقد واجه السكان السياسة الاستعمارية ببسالة وقد كانت الصحراء تمثل ملاذا آمنا للهاربين من المتابعات الفرنسية في الداخل، أو الفارين من أنظمة الحكم في ليبيا وتونس وإن كانت المدن الساحلية والمناطق الحضرية في التل تمثل الواجهة وخط المواجهة الأول في وجه الغزوات سواء كانت عسكرية أو حتى ثقافية، حضارية، بشرية وغيرها، فإن الجنوب الجزائري والصحراء تمثل العمق بكل ما يعنيه حيث مركزا هاما، يقدم الدعم المادي والمعنوي للثائرين بتزويدهم بالمال والسلاح والرجال حيث كانت نقطة عبور إلى تونس وطرابلس، وهو فضاء مفتوح يسهل التنقلات، مما جعل الحدود الجنوبية والشرقية غير آمنة في نظر الاستعمار الفرنسي فتضحيات الجزائريين كانت كبيرة حيث سقيت الأرض بدماء الشهداء، وما كان لفرنسا أن تنجح في التوغل إلى الجزائر العميقة، إلا بعد ما يقارب القرن من زمن احتلال مدينة الجزائر العاصمة في 1830 .

وعليه فمن الخطأ القول ان الاحتلال الفرنسي للجزائر دام 132 سنة بحكم أن بلاد بحجم الجزائر بشساعتها وتنوعها، لا يمكن أي دولة مهما بلغت قوتها وسطوتها ان تفرض سيادتها وسيطرتها عليها في زمن وجيز.

وترجع انطلاقة هذه المقاومة حين تحركت القوات الفرنسية بقيادة قائد المكتب العربي ببسكرة النقيب سيروكا *Seroka* باتجاه واحة الزعاطشة للقبض على الثائرين والرافضين للتواجد الفرنسي بالمنطقة، فاشتبكت القوات الفرنسية بمحيط الواحة مع الشيخ بوزيان، هذا الأخير الذي كبد الفرنسيين خسارة انسحب على إثرها سيروكا *Seroka* وتراجع إلى بسكرة (Seroka , 1912,, 50)، فاتجه إلى واحة الزعاطشة وحاور أهلها على تسليم الشيخ بوزيان إلى السلطة الفرنسية، إلا أن أسلوب المراوغة الحوارية لم يؤتي بنتيجة ايجابية تخدم الفرنسيين، سوى التأكد من إصرار سكان واحة الزعاطشة على الجهاد والمقاومة(الزبيري، 1972، 53). وعليه قررت السلطة الاستعمارية الاستعداد لاحتلال واحة الزعاطشة، حيث تحركت القوات الفرنسية بقيادة العقيد كاربيسيا *Karbuccia* يوم 16 جويلية 1849م نحو الواحة، وفرضت حصار اقتصاديا غير أن هذا الحصار قوبل بصلابة المقاومين، مما دفع بالقوات الفرنسية إلى التراجع نحو بسكرة وإعادة النظر في اقتحام واحة الزعاطشة

وقد وصلت أصداء الاحداث إلى وادي سوف والجريد وحينئذ غادرت سوف مجموعة من المقاومين نجدة إخوانهم المحاصرين ولا يستبعد التنسيق بين السوافة وبين محمد الصغير بن عبد الرحمان الذي كان يومها في نفطة التونسية غير قوة السلاح الفرنسي كانت أقوى من إمكانيات المقاومين

ثم بعد الزعاطشة جاء الدور على الاغواط كما أسلفنا حيث وصلت القوات الفرنسية أسفل أسوارها في 4 ديسمبر 1852م لاحتلالها، وفرضت حصارا على المدينة إلى أن تم فتح ثغرة في أسوارها المحصنة بسبب القصف المدفعي المكثف، فدخلت القوات الفرنسية بأمر من الجنرال بيليسيه *Bellissier* واشتبك المقاومون مع الأعداء في معركة حامية الوطيس دفاعا عن المدينة وأهلها، واستطاع الفرنسيون احتلال القصبة واضطر المقاومون إلى التراجع إلى القواعد الخلفية للمدينة، ثم انسحبوا إلى الخارج، حيث لاحقتهم القوات الفرنسية، وعلى اثر هذا الانتصار الفرنسي أعلنت السيطرة النهائية على الاغواط وتم تعيين العقيد كلار "*Cler*" قائدا مؤقتا على الاغواط.

وتجدر الإشارة هنا أن الفرنسيون استباحوا المدينة لجنودهم لثلاثة أيام بعد أن توقفت المقاومة، ولمدة ثمانية أيام وهم يقتلون الناس دون رحمة، ومارس الجنود النهب والسلب، واغتصبوا النساء، وارتكبوا مجازر رهيبة وشنيعة في حق الأهالي، حيث وصل عدد القتلى إلى حوالي 2000 قتيل من بينهم بعض الفرنسيين(Garrot, 1910,192) وكل هذا من أجل تفتيت عضد المقاومة الصلبة وإرهاب الاهالي، غير أن ذألك لم يجدي نفعا حيث تمركزت المقاومة في منطقة ورقلة رافضة الخضوع للسلطة الفرنسية والتعاون معها.

وأمام هذه التهديدات ما كان من السلطة الاستعمارية إلا الإسراع في إخضاع منطقة ورقلة والسيطرة عليها قبل أن تتحول إلى قاعدة ثورية للمقاومة الشعبية وحسب رواية المجتمع المحلي فإن الشريف محمد بن عبدالله لقي ترحابا واستقبالا كبيرين بورقلة، إذ كثر أتباعه وأنصاره في ظرف وجيز، واتفق الأهالي على توليته سلطانا على ورقلة في حالة انتصاره على الأعداء باقتراح من الحاجة الزهرة (لآلة زهرة) وتذكر المصادر التاريخية أن الشريف محمد بن عبد الله لم يجد صعوبة في الدخول إلى ورقلة، وعلى هذا الأساس بويع سلطانا على ورقلة في صائفة 1851 م (شافو، 2011-2012، 133) فعمل على استتباب الأمن، والقضاء على الصراعات المحلية التي كانت قائمة بين القبائل البدوية والأسرة الحاكمة، وتحقيق الاستقرار السياسي، ومحاولة توجيه الأنظار من المجال الضيق إلى المجال الواسع، والاستعداد لمواجهة خطر الاحتلال الفرنسي، وأخد يعد العدة والعتاد، ويجمع الأتباع والأنصار، واستمالة القبائل الموالية للفرنسيين، وبات يهدد التواجد الفرنسي بالمنطقة خاصة وأنَّه دخل معهم في أول معركة يوم 22 ماي 1852م بمنطقة متليلي. (Rapport.Cercle de Biskra. A.O.M. F80, 1853, 501)

ثم تلاحمت المقاومة في صورة أخرى عندما تجمعت القوات الشعبية من وادي سوف وقوات الثائر الشريف محمد بن عبد الله وقوات تقرت بقيادة سلمان الجلابي والتي بلغ عددها ما بين 2400 أو 2800 من المشاة والبقية خيالة(غنابزية، 2010 ،157) في الواقعة المعروفة بمعركة المقارين في المكان المعروف ببورخيص، في يوم 29 نوفمبر 1854، ويذكر صاحب الصروف أن سبب الهزيمة هو تسرع أحد السوافة فقام باستنفار أصحابه قبل أن يستعد الجيش، فأعطى ذلك فرصة للفرنسيين للفتك بقوات سلمان بسهولة وهكذا انتهت المعركة بانتصار الفرنسيين والتجاء سلمان الجلابي والشريف محمد بن عبد الله إلى تقرت، والاعتصام بها، وخضعت المدينة لحصار فرنسي شديد، بينما

انسحب المقاومون من أهل سوف إلى مدينة الوادي، وفي يوم 2 ديسمبر 1854 غادر الشيخ سلمان والشريف محمد بن عبد الله تقرت، التي سقطت في يد الفرنسيين يوم 5 ديسمبر 1854 حيث دخلها العقيد **ديفو** قائد ناحية باتنة، معلنا عن سقوط" مشيخة بني جلاب "التي حكمت تقرت أكثر من أربعة قرون، وبسقوطها سهل على الفرنسيين مواصلة زحفهم نحو "وادي سوف."(غنابزية، 2009/2008، 122) حيث تذكر المصادر الفرنسية ان العقيد ديفو قضى مدة سبعة أيام بسوف وهو في صراع مع المقاومين على الرغم من عدم تكافؤ القوى بين الطرفين فالمجتمع السوفي كان يعيش حياة قبلية بدوية وهذا ما جعل جهوده مبعثرة في القرى والبوادي من جهة والافتقار لقائد يجمع أطراف البلاد ويقودها في الحرب والسلم فضلا عن قلة الاسلحة وفقدان خطة عسكرية محكمة لمواجهة عدو عنيد(غنابزية، 2010، 160).

وعلى الرغم من احتلال فرنسا للمنطقة وتنصيب عملائها كعلي باي وغيره كمرحلة أولى إلا أن الاوضاع لم تستقر لها ففي 5 مارس 1871 وبصورة مفاجئة وصل بوشوشة إلى أنقوسة التي واجهه أهلها بمقاومة عنيفة، فاتجه إلى ورقلة في نفس اليوم وقد خطب في رفاقه قبل انطلاقه لتحريرها فبين لهم الهدف الحقيقي من المقاومة، وأخبرهم بأن فرنسا قد حانت ساعة الخلاص منها، فقال ": إذا كنتم ترغبون في الغزو والنهب فقط، فلست منكم، وأما إذا عاهدتموني على أن تعطوني السيادة على ورقلة فإني اقبل قيادتكم شريطة أن تعاهدوني على أن تكونوا معي حتى النصر أو الموت " و قد دخلها بدون مقاومة بعد مفاوضة أهلها، نظرا لوجود عدد كبير من أنصاره وأتباعه الذين مهدوا له الطريق لذلك من جهة، وغياب علي باي آغا ورقلة الذي كان آنذاك بحاسي الناقة تاركا خليفته " السي نعمان بن دباح " من جهة أخرى ، لذلك نصب بوشوشة عليها صديقه ناصر بن شهرة آغا ، لتكون– أي ورقلة – قاعدته الثورية للهجوم على الفرنسيين (يحياوي، 2004 ، 04). من جديد وهو ما كان دليل على أن روح المقاومة كانت متجذرة في المنطقة.

وفي 8 مارس1871 اتجه إلى قمار بعدما اتصلت به جماعة من الشعانبة السوافة لتقديم لهم مساعدة ضد ظلم علي باي طالبين منه الإجهاز على عائلته وزمالته التي أودعها ببلدة قمار بوادي سوف

4 نمو الوعي السياسي لسكان الصحراء

أثبت سكان الصحراء من خلال التفافهم حول قادة المقاومة واحتضانهم للقضية الوطنية عن نمو وعي سياسي، حيث تبنوا المقاومة المسلحة كأسلوب نضالي فقد ساهمت الصحراء الشرقية مساهمة فعالة في المقاومة الشعبية بشتى أنواع الدعم المادي والبشري، وساعدها في ذلك قربها من أسواق السلاح المجاورة لها في تونس وطرابلس .وقد نشط المقاومون في عملية جلب الأسلحة والذخائر من هذه الأسواق الامر الذي أزعج المستعمر(غنابزية،2010 ، 154) ويومئذ كانت منطقة سوف وبلاد الجريد من أهم معابر قوافل السلاح إلى المقاومين حيث عرفت قبيلة الشعانبة في سوف بنشاط واسع في عملية شراء الأسلحة، وتوفير الذخائر، وجلبها من الجريد التونسي عبر سوف، لتكون وقودا للمعارك

فقد ظن الفرنسيون أن سكان الجنوب سوف يساعدونهم لأنهم في اعتقادهم في أمس الحاجة إلى المواد الغذائية التي تأتيهم من الشمال وهذه الضرورات ستجعلهم أكثر اعتدال في تعاملهم مع فرنسا وهم في ذلك سيكونون أقل عداء لها من سكان المناطق الشمالية، لكنها اصطدمت بما لم تكن تتوقعه وخابت ظنونها فقد هب سكان الجنوب عن بكرة أبيهم لمقاومة الاحتلال واستطاعوا أن يبرهنوا على اعتزازهم بوطنهم واستعدادهم للتضحية من أجله، والدفاع عنه مهما كان الثمن، وعليه ظهرت المقاومات والثورات الشعبية هنا وهناك وكانت امتدادا للمقاومات التي ظهرت في الشمال(سعود، 2010 ،132) رغم ما كانت تعرفه مناطق الجنوب من ظروف غير مساعدة.

ورغم تعيين القياد وإعطائهم صلاحيات واسعة فالأوضاع بقيت متوترة هذا ما ساعد على ظهور مقاومة شعبية شرسة جعلت من ورقلة مركزا لها (ذكار، 2014 ،80) في فترات معينة الى جانب وادي ريغ ووادي سوف حيث كانت أصداء المساندة الشعبية للمقاومة المسلحة مسموعة عند الفرنسيين الذين يترقبون الفرصة السانحة لوضع حد لتضامن السكان وإنهاء عمليات الايواء والدعم الذي قدمته وادي سوف للمقاومة الشعبية(غنابزية،2010 ، 155) حيث كانت سباقة للنجدة وهذا جعلهم ينظمون أنفسهم في قوات كبيرة أبرزها (جيش النجدة)) الذي شارك بقوة في موقعة المقارين .

كما مثلت مقاومة منطقة وادي ريغ صفحة مجيدة من صفحات المقاومة المشرفة وتعود انطلاقة هذه المقاومة إلى خريف 1854 عندما راجت أخبار مفادها أن القوات الفرنسية تتأهب للقيام بعمليات عسكرية كبيرة للهجوم على إقليم وادي ريغ وإقليم وادي سوف، فكانت تعبئة شعبية كبيرة عبرت عن وعي وطني عميق حيث ومواصلتا للترتيبات بعث سلمان إلى سكان واد سوف والقرى المجاورة لهم، يحثهم فيها على الجهاد، ويطلب منهم أن يكثروا من البارود، ويأمروا تجارهم بان يجلبوا البنادق للبيع لأنه في أمس الحاجة إلى ذلك. ومن نتائج هذه المعركة يذكر شارل فيرو – الذي رافق اغلب الحملات العسكرية في الجنوب الشرقي – في كتابه (صحراء قسنطينة) على لسان النقيب Seroka قائلا : ((... كان من نتائج انتصارنا في هذه المعركة التي دامت حوالي خمس ساعات، تراجع الأعداء نحو تقرت, وتساقط العديد منهم قتلى بسبب الازدحام الذي وقعوا فيه أثناء عبورهم الجسر الممتد على عرض الخندق المحيط بالمدينة الذي يوصلهم إلى باب الخضرة، المنفذ الوحيد إلى مقر مشيخة بني جلاب،- جاء في المبشر انه مات منهم ثلاثة عشر شخصا خنقا وسقطوا بالخندق -كما تمكنا من غنم 1000 بندقية و 100سيف و5 رايات ، في حين قدرت الخسائر البشرية بما يقارب 500 قتيل وجريح في صفوف العدو, ولم نسجل نحن سوى 11قتيلا و46 جريحا)) , Feraud) .1881 , 218)

وقد انتقمت السلطات الفرنسية من المقاومين لكسر روحهم الوطنية فأثناء مطاردة رجال المقاومة في تقرت ووادي سوف ففرضت السلطات العسكرية عقوبات على السكان ولا سيما المقاومين وتمثلت في فرض عقوبات مالية وغرامات معتبرة دفعها 75 مقاوما من سكان كوينين ومبلغ 60 ألف فرنك دفعها أهل الوادي (غنابزية، 2010 ، 161) وقد

كان من أهم نتائج معركة المقارين على صعيد الوعي الوطني أن تحول مقاصد النجدة عند أهل سوف والتي كانت قديما تلبية لأحد الاطراف بدافع الولاء أو المصالح المادية المشتركة فضلا عن الخوف والرهبة من العقوبات المترتبة عن الرفض وصارت منذ معركة المقارين بدافع الواجب الوطني وتلبية للنداء الرباني والوفاء والمروءة التعاون بين مناطق الجنوب وتلبية النداء في حينه بدون تردد وبذل الامكانيات المتوفرة بسخاء منقطع النظير والدفاع إلى أخر جهد ظاهر (غنابزية، 2010 ، 162) في وقت كان الشعب يلتحم بالمقاومة التي كان يجد فيها زعامات حقيقية حيث أن من أبرز الخطوات التي قام بها محمد بن عبد الله بعد البيعة هي المؤاخاة ما بين القبائل المتناحرة وتأسيس زمالة وجعل من مدينة الرويسات عاصمة له وأنشأ بها مجلسا شوريا (غنابزية، 2014 ، 177) وضلت المقاومة الشعبية رغم قلة الامكانيات مشتعلة ولقنت العدو الهزائم واسترجعت البلدان التي احتلت وعين عليها أغوات وقياد من طرف محمد بن عبد الله وبوشوشة ورجع قياد فرنسا يجرون وراءهم الخيبة ويستنجدون بالطوابير العسكرية لعلها تنقذهم من المصير المؤلم(غنابزية، 2014 ،177)

وعندما انطلقت ثورة المقراني والحداد بالشمال الجزائري انتشرت أصداؤها في الجنوب ، واستغلها كل الغاضبين والناقمين على السلطة الاستعمارية، مع العلم أن انهزام سلمان الجلابي والشريف محمد بن عبد الله في معركة المقارين 29 نوفمبر 1854 كان نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة للمقاومة والتي لعب فيها الشريف محمد بن عبد الله دورا كبيرا في تعبئة سكان وادي ريغ والصحراء وأجرى اتصالات مع بعض الزعماء الثوار لرفع راية الجهاد من جديد ضد العدو، ومنهم الشريف بوشوشة وناصر بن شهرة ، وإن تكرر ذكر هذه الاسماء فإنها تمثل قيادات لمقاومات شعبية وجدت هذه القيادات استعداد من لدن السكان للالتفاف حولها حيث كانت هذه الزعامات كلما تدعوا للجهاد إلا وتلقى دعوتها استجابة واسعة حتى في المناطق التي استولى عليها الاستعمار ومساعدة عملائه كحمزة ولد بوبكر أو على باي، وهو ما مكن المقاومة من استرجاع هذه المناطق وتحريرها، وبالتالي اضطر فرنسا إلى المجازفة والمغامرة أكبر بخيار الاستقرار في المناطق المحتلة عسكريا لتثبيت احتلالها حتى تراقب السكان مباشرة، في وقت بقيت المقاومة متحفزة تنتظر من يقودها من جديد وهو ما كان مرة أخرى في ثورة نوفمبر المجيدة.

قائمة المصادر والمراجع

كتب بالعربية

1) ذكار، أحمد(2014) **المقاومة الشعبية بالجنوب الشرقي مقاومة محمد بن عبد الله نموذجا، من وحي المعركة** منشورات بلدية المقارين
2) شافو، رضوان (2013) **بحوث ودراسات في تاريخ وادي ريغ**، طبعة ثانية، باتنة
3) شافو، رضوان (2014) **جوانب من السياسة الاستعمارية بالصحراء الجزائرية من خلال تقارير السلطة الفرنسية والوثائق الارشيفية**، طبعة أولى، دار قانة للنشر والتوزيع، باتنة،

4) غنابزية، على (2014) **الاحتلال الفرنسي للجنوب الشرقي الجزائري وردود الفعل الشعبية (1844-1872)** منشورات بلدية المقارين

5) الزبيري، محمد العربي (1972) **مقاومة الجنوب للاحتلال الفرنسي**، الجزائر، ش.و.ن.ت.

رسائل جامعية

1) شافو، رضوان(2011-2012) " الجنوب الشرقي الجزائري خلال العهد الاستعماري ورقلة أنموذجا1844-1962" كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر2

2) غنابزية، علي(2009/2008) " مجتمع وادي سوف من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية 1882-1954 «، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر

دوريات متخصصة

1) سعود، دحدي (2010) " ثورة الشريف محمد بن عبد الله في الصحراء الجزائرية ومواجهة التحدي الاستعماري الفرنسي (1842-1895)"، مجلة الباحث في العلوم الانسانية والاجتماعية المركز الجامعي بالوادي، العدد 1

2) شافو، رضوان، (2011) "الاحتلال الفرنسي لمنطقة ورقلة وضواحيها قراءة في الدوافع والمراحل"، مجلة الباحث في العلوم الانسانية والاجتماعية، المركز الجامعي بالوادي، العدد 2، ص ص 82-91

3) غنابزية، علي (2010) "دور وادي سوف في معركة المقارين (1854) وأثارها على المقاومة المسلحة في المنطقة الجنوبية الشرقية «، مجلة الباحث في العلوم الانسانية والاجتماعية، المركز الجامعي بالوادي، العدد 1، ص ص 149-164

ملتقيات

1) يحياوي، مسعودة« محمد إبراهيم بن تومي المدعو بوشوشة »، **الملتقى التاريخي لبلدية تقرت** يومي29 و30 ديسمبر 2004،

مراجع باللغة الفرنسية

1) Dumas. (1845) Le Sahara Algérien Paris,

2) Garrot, Henri (1910) **Histoire Général de l'Algérie**, Alger,

3) soleillet, Paul (1877) l'Afrique occidentale Algérie M Zab Tidikelt, Avignon, imprimerie de Seguin aine

Revues

1) Feraud, Ch. (1881) « Les Ben Djalal Sultans de Touggourt », in **R.A**, N° 25, pp 218- 220

2) Seroka Le Commandant, (1912), « le Sud Constantinois de 1830- 1855 », R.A, n° 56,

Rapport du mois Septembre 1853.Cercle de Biskra. A.O.M. F80 501.

Les territoires du sud de L'Algérie première partie ce qui ils sont pourquoi ils ont et crées Alger P/G Soub